مستقبل اللغة العربية في العالم

الأستاذ : محمد بن اسماعيل

ترجمة الأستاذ : محمد محمد الخطابي

بواجهنا — فى مجال الحديث عن اللغة العربية — مظهران لغويان اثنان ، فنحن نجد انفسنا احيانا ازاء لغتين ، يطلق على الأولى — بصفة عامة — لغة فصحى او ادبية ، ويطلق على الثانية لغة الحديث اليومى (اى العامية) . وتحصى هذه الاخيرة بالاجمال بعدد البلاد التى لها صلة بالعربية وهى عادة معرضة لنزوة لا يضاهيها الا الجهل المتفاوت للغة الفصحى ، وكثيرا ما يكون هذا التضاهى فى سائر اللغـات .

ان العالم مقسم اليوم الى كيانات سياسية تستعمل فى كل منها بصفة رسمية لغة معينة غير انه من الصعب ان ندرك أن سكان الولايات المتحدة الامريكية يستطيعون التكلم باللغة الانجليزية وان سكان بلجيكا لايتحدثون البلجيكية وأن نسبة كبيرة من سكان سويسرا يتكلمون اللغـة الفرنسيـة .

كما انه يصعب ان ندرك ان العالم العربى الذى هو مقسم سياسيا بصفة متبادلة ليس لكل بلد منه لغة رسمية خاصة تتميز عن لغة البلاد الاخـرى . فالى اى طور وصلت اليوم لغة هذه البلدان وهل من الممكن ان تتخلص اللغة العربية الحديثة وما يتبعها من لهجات من هذا الضبـاب الكثيف المحيـط بهـا ؟

من العربية الفصحى الى « العربية المفرنسة »

يرى البعض — ونحن متفقون معه — أن اللغـة العربية — حسب ما هى مستعملة فى البلدان العربية — تتميز بصفة عملية بثلاث مظاهر ممثلة فى درجات ثلاث هى كمـا يلى :

اولا : العربية المكتوبة والمقروءة وهى لغة المدارس والادارات والتـاليف الادبـى والعلمـى والخطـب

---

(1) نشر هذا المقال فى مجلة (Jeune Afrique) عدد 799 ، 30 ابريل 1976 .

2) استاذ مبرز فى الآداب ، وصاحب منهاج حديث لتعليم اللغة العربية للأوربيين — والمسئول عن برنامج التكوين الدائم فى جامعة باريس 8 .

السياسية ، ، الخ وهى مستعملة بصفة عامة فى سائر وسائل الاعلام والتبليغ ·

ثانيا : العربية « العامية » وهى لغة العلاقات اليومية المستعملة على الاخص فى الاوساط الشعبية وينبغى أن نرى هل هى موحدة فى كل بلد على حدة ثم على صعيد الوطن العربى كله ·

ثالثا : اللغة العامية المليئة بالدخيل الأجنبى خاصة من اللغات الغربية — وهى على العموم — أكثر اللغات استعمالا لدى الطبقات المثقفة والمتوسطة المتخرجة من المدارس الانجليزية بالنسبة للمشرق أو الفرنسية بالنسبة للمغرب وفى هذه الحالة كثيرا ما يتخلل هذه اللغة تعابير بل وجمل تامة بالانجليزية او الفرنسية ، وتستعمل هذه اللغة بطريقة عفوية وبدون مراعاة للقواعد النحوية · ويجرنا هذا الى التفكير بكيفية هامة لما يسمى بالفرانجلى (FRANGLAIS) أى للتعبير عن كثرة الدخيل الانجليزى فى الفرنسية وقد يقال فى هذه الحالة كذلك (العرنجلى (ARANGLAIS) او العرنسى (ARAFRANCAIS) للتعبير عن نفس الغاية فى كل لغة ·

اننا نلاحظ أن العمال المغاربة فى فرنسا أو حتى فى شمال افريقيا (ومعظمهم أميون) يستعملون فى كلامهم العادى — بصفة تلقائية — مجموعة من الكلمات أو التعابير محرفة تنحدر أساسا عن اللغة الفرنسية ، فنحن نجد عندهم مثلا الاسبوع (Semaine) يتحول الى (Smana) والغرفة (Chambre) تتحول الى (Chambri) والفندق (Hôtel) يصبح (Outil) ، والبطالة (Chômage) تغدو (Chaumage)ولعبة سباق الخيل المعروفة (Tiercé) ينطقونها (Tirsi) وهكذا ، ، ويضاف الى هذا التحريف اللفظى عند المتكلمين الذين لهم المام كاف باللغة الفرنسية الأخطاء التى مردها الى تغيير طبيعة الأسماء فى التذكير والتانيث ، فنحن نجد مثلا أن نسبة كبيرة من الاسماء المذكرة فى الفرنسية هى مؤنثة فى اللغة العربية ، لذا فليس غريبا أن يؤنث هذا العامل كلمة Avion (الطائرة) وهى اسم مذكر فى الفرنسية ، وكذلك Chaise (الكرسى) المؤنثة فى الفرنسية فيذكرها، كما انه يؤنث (الشمس) Soleil وهى مذكر فى الفرنسية كذلك وهكذا . . ويرجع سبب ذلك كما سبق القول الى اختلاف طبيعة هذه الاسماء فى اللغتين · كما انه من الملاحظ فى حالة عدم اعتبار الجملة الاسمية التى ليس لها نظير دقيق بالفرنسية واعتبار أن الفعل فى العربية يسبق الفاعل فى الجملة الفعلية على الرغم من هذا الخلاف فمن المستطاع أن تتطابق البنيتان الفرنسية والعربية ·

عربية الغد

اللغة العربية تاسم مشترك بين الدول العربية جميعا وهى تزداد فى الوقت الراهن — عمقا وتفتحا يوما بعد يوم ، ويرجع الفضل فى ذلك الى عوامل متعددة ومتطورة باستمرار لها أهميتها الكبرى وتأثيرها البليغ فى توحيد هذه اللغة ، فما هى اذن هذه العوامل ؟·

يتعلق الامر — فى المقام الاول — بمسالة استحداث المدارس الجديدة التى تنمو وتتكاثر تكاثرا مدهشا وعلميا فى جميع البلاد العربية والتى يعلم فيها — على الاقل — المواد اللغوية الصرف والمواد الادبية ويتم ذلك التعلم — بطبيعة الحال — بواسطة الفصحى ، وتجدر الاشارة هنا الى أن العامية لم تقص بعد بصفة مطلقة من المدارس الابتدائية غير انه ليس لهذا الاثر العامى أى أثر لا سيما وان هذه المدارس تقصد اساسا الى تعليم القراءة والكتابة اللتين يتمان بواسطة الفصحى·

ويتعلق العامل الثانى باهمية الدور الذى اخذت تضطلع به العربية الفصحى يوما بعد يوم فى البلدان العربية ، وعلى الصعيد العالمى وهو يتركز على التطورات الاقتصادية والوثبات الجبارة التى يرجع سببها فى هذا المجال الى الثورة البترولية بصفة خاصة وما تجلبه من عائدات وأرباح هائلة ، ولا يستطيع عالم اللغة — تبعا لذلك — أن يصدر حكما تقييميا بصدد هذا المصدر المسهم فى تطور اللغة العربية وانتشارها فى العالم وانما قصارى ما يمكنه فعله بشانه هو الاشارة الى هذه الظاهرة من غير التحمس لها او الاقلال من قيمتها ، ويبقى الامر أمرا لغويا يعود لاسباب سياسية واقتصادية لا ينبغى اغفال اثرهما فى هذا المجال ·

لقد أصبحت اللغة العربية لغة رسمية فى كثير من المنظمات الدولية — ولاسيما — فى اليونسكو بجانب اللغات الكبرى الاربع : الانجليزية ، والروسية ، والاسبانية ، والفرنسية ، ولئن كان الغربيون ، والفرنسيون من بينهم ، كانوا يعتبرون العربية فيما مضى من جملة اللغات الميتة ولم يهتموا الا قليلا بتدريسها فانها أصبحت الآن عندهم محل اهتمام زائد وصار الناس منذ بضع سنوات يميلون الى تعلمها والتعرف عليها والانتفاع بها ·

ان الدور الذى اصبحت تلعبه اللغة العربية فى عالم اليوم وخاصة فى العالم الغربى وهو الذى كان نبذها نبذا سيسهم حتما فى تطورها والرفع من قيمتها واستقرارها التدريجى كما سيساعدها على فرض نفسها كلغة دولية بعد أن عم شيوعها سائر البلاد العربية واعترف لها بصفتها الدولية اعترافا دوليا ·

أما العامل الثالث من هذه العوامل الثلاثة فانه يتمثل فى هذا التداخل والتبادل القائمين منذ أعرق العصور بين البلدان العربية واللذين اصبحا يتمان اليوم بسرعة بفضل تطور وتعدد وسائل المواصلات بالاضافة الى مسالة توطيد العلاقات من كل نوع بين هذه الاقطار التى تزداد يوما بعد يوم ، غير انه على الرغم من أن هذه الدول تشكل كيانات سياسية متميزة فانها ما تزال تعانى — فى بعض الاحيان — من خلافات واصطدامات عنيفة فيما بينها ولغة التخاطب والتفاهم الرئيسية فى تلك العلائق جميعا هى بطبيعة الحال اللغة العربية الخاضعة لقواعد نحوية محكمة فى حالة الكتابة او المتميزة بنبرات صوتية خاصة فى كل بلد عربى حسب الانتماء الجغرافى للمتكلم بها ، غير انه لا يصعب فهم هذه النبرات فى اى بلد عربى ·

وهذا أمر طبيعى ، فاللغة الانجليزية مثلا لا يتحدث بها فى بريطانيا العظمى مثلما يتحدث بها فى الولايات المتحدة الامريكية . كما ان الفرنسية لا تستعمل بصفة مماثلة فى فرنسا وبلجيكا وسويسرا وكندا الفرنسية · والأمثلة متعددة فى هذا المجال ، ليس غريبا اذن ان نلاحظ فى البلدان العربية بعض الخلافات اللسانية فى حالة التنقل من بلد الى آخر ·

وتزداد اهمية هذا العامل الاخير اذا علمنا حجم الدور الذى اصبحت تلعبه المدرسة وانتشارها الواسع بين الطبقات الشعبية نتيجة للسياسة التى تنهجها الدول العربية فى ميدان التعليم بعزيمة كبيرة فى محاولة اللحاق بالعصر وتعويض ما فاتها فى هذا المضمار كما أن انتشار وسائل التعبير والتبليغ وسهولة مداولتها بين الشعوب ، والارتفاع الشبه العام للمستوى المعيشى للسكان ، كل ذلك سيساعد ولاشك على ارتفاع المستوى الثقافى فى هذه البلدان جميعا ·

كل هذه الظواهر تحمل على التفكير بأن العوامل الثلاثة المبينة اعلاه متجهة بسرعة نحو التقارب فيما بينها لتصبح فى النهاية امرا واحدا ·

ان الاجيال الجديدة من ابناء العروبة فى مختلف البلدان العربية لم يعيشوا تحت السيطرة الفرنسية او الانجليزية ولكنهم شاهدوا الاضمحلال المتفاوت السرعة لهذه السيطرة · وهؤلاء سيجدون انفسهم مهيئين لاستعمال لغة مشتركة فيما بينهم ويمكن أن نشاهد هذه الظاهرة الآن فى سائر البلاد العربية بما فيها الجزائر التى عرفت الحضارة العربية بها حالة حصار دام اكثر من قرن من الزمان ، حتى كاد يقضى عليها الى الأبد وحيث بقيت اللهجة البربرية ثابتة بالرغم من كل ذلك ·

ويبدو وجود اللغة متى وقع الاتصال فى اطار منطق مزدوج من نمط صوتى ، ويقوم توحيد اللغة على تحقق الاتصال · انطلاقا من هذا التعريف يتأتى لنا القول بأن وجود لغة واحدة موحدة لاريب فيه ، وهذه اللغة المشتركة تشكل نموذجا راسخا فى الاذهان بصفة تجعله ينفذ باستمرار الى بناء الجمل الدارجة متى ارتفع مستوى الحديث شيئا ما فوق ظروف الحياة العادية·

نحو لغة موحدة

على أن هناك مجالا من الاهمية بمكان تتراكم الصعاب فيه يوما بعد يوم دون أن نستطيع الزعم باننا سنجد لها حلولا ناجعة وهو مجال المصطلحات الذى لا يزال فى الواقع عبارة عن ارض بور على ان هناك جهودا صادقة تبذل فى هذا المجال وهى ذات اتجاهين اثنين · يتمثل أولهما فى نشاط المجامع اللغوية وخاصة مجمعي القاهرة ودمشق (3) اللذين بذلا وما زالا يبذلان جهودا طيبة فى هذا الميدان · وبجانب هذا العمل ينمو

---

(3) يلاحظ ان الكاتب قد أغفل هنا ذكر مجمع بغداد الذى لاينكر احد الجهود المحمودة التى بذلها ومايزال فى خدمة المصطلح العربى على وجه الخصوص ، كما ان الكاتب اغفل كذلك ذكر مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الذى يضطلع بهذه المهمة اساسا منذ ازيد من خمسة عشر عاما (المترجم)·

نشاط لا بأس بفعاليته وان كان غير منظم وهو ماتقوم به الصحف والمجلات ومختلف اللقاءات والندوات التي تعقد بشأن اللغة العربية .

اما مسألة اختلاف المسميات وتباينها بين بلد عربي وآخر فليس له اى أثر على مسيرة اللغة العربية. فحتى لو سمي شيء في تونس بغير ما يسمى به في القاهرة فان كلا الاسمين عربيان ومعروفان ان لم يكونا شائعين في جميع البلاد العربية . فالجسر — على سبيل المثال — الذى يسمى فى تونس قنطرة نجده فى كل من دمشق والقاهرة يقال له « جسر » للتعبير عن نفس الدلالة وان كان اللفظ معروفا معرفة تامة فى المدن الثلاث .

تلك أمثلة بسيطة أحببت الاشارة اليها وكما اشرت سابقا فان توحيد اللغة العربية — الذى هو سائر نحو التحقيق — سيقضى شيئا فشيئا على الخلافات القائمة والتى ستصبح مع الايام ضئيلة جدا ان لم يبق لها اثر يذكر على الاطلاق .